أوان زجاجية مصورة من العهد الروماني

محفوظة في المتحف الوطني بدمشق

للدكتور

سليم عادل عبد الحق

تعد الأواني الزجاجية المصورة التي يرقى تاريخ صنعها الى العهد الروماني من أثمن التحف الأثرية . وقد انتهى الى زماننا عدد قليل جداً اكتشف بعضها في ايقوسيا ، والمانيا ، والدانيمارك ، والجزائر ، ومصر ، وسورية ، وخاصة في بغرام من أفغانستان ، وتبين من دراستها في المتاحف التي حالفها الحظ باقتنائها ، أن صناعتها بلغت القمة من الكمال في الأزمنة القديمة .

وشاءت الظروف السعيدة أن يمتلك متحفنا الوطني في العاصمة السورية عدداً من هذه الأواني أظهرته الحفائر التي أجريت في حوران منذ ثمان سنوات ، وبعض الكسر التي اكتشفت في حفائر تدمر خلال الخريف الماضي . وكان من جراء حيازة هذه الآثار السورية الثمينة أن ازدادت معارفنا عن الآثار المذكورة وعن طرق صنعها ، وأشكالها ، وتاريخها ، وموطن صناعتها .

وسألتزم خلال هذه الصفحات بذكر أخبار اكتشافها ، ووصفها ، وتاريخها معتمدا على المعطيات الأثرية والأسلوبية ، ثم أختتم حديثي مؤكداً النظرية التي تقول بأن أصلها سوري ، والتي ازدادت صحة ووثوقاً بظهور الآثار المذكورة في عدد من المناطق الأثرية السورية .

وابدأ مقالي منوهاً بصحن زجاجي ملون اكتشف خلال حفائر سرية جرت سنة ١٩٤٣ في موقع الياقوصة بالقرب من الزوية . وقد وضع المرحوم السيد أنطون الدحداح يده

عليه ، وعرضه على المتحف الوطني بدمشق . ولم تكن إمكانيات المتحف المذكور آنذاك تمكنه من دفع ألف ليرة سورية ، حددت ثمناً له ، فتركه إلى صاحبه يتصرف به . وما كان من السيد الدحداح إلا أن باعه إلى زميله السيد إلياس بستروس في بيروت الذي تمكن من بيعه بدوره بثمانية آلاف ليرة لبنانية إلى أحد مقتني الآثار الأميركيين الذي أهداه إلى متحف (الكورنين) في نيويورك . ويمثل هذا الصحن كما تربنا ذلك إحدى الصور الفوتوغرافيه التي أخذت له تحكيم الطروادي الشاب (باريس) في موضوع جمال الربات أثينه ، وهيرا ، وأفروديت . وأكبر الظن أن صنعه يرقى إلى النصف الثاني من القرن الثاني أو النصف الأول من القرن الثالث بعد الميلاد . ويؤسفنا كل الأسف أنه أفلت من يد السلطات الأثرية السورية التي كانت قائمة ، وأن المجموعات السورية الأثرية خسرته نهائياً .

وفي سنة ١٩٥٥ قامت المديرية العامه للآثار والمتاحف بإجراء حفائر أثرية هامة في موقع أم حوران على بعد خمسة كيلو مترات شمالي قرية نوى التي كانت مدينة هامة في العهد الروماني . وكان بنتيجة اجراء هذه الحفائر أن اكتشفت مقبرة قديمة استخدمت اعتماداً على النقود التي ظهرت في القبور بين أول القرن الأول وأول القرن الثالث بعد الميلاد . وقد عثر في قبرين من قبورها على أربعة صحون ملونة صغيرة تمكنا من نسبتها إلى النصف الثاني من القرن الثاني الميلادي . وإليكم وصفاً موجزاً لهذه الصحون الثمينة :

الصحن الأول :

لا يتجاوز قطره (١٠ سم) ، وسطحه الخارجي مقعر ، وينتهي بثنية تلتف نحو سطحه المحدب ، وقد أصيب بثلم شوهه بعض التشويه . وهو مصور ، استخدم المداد الأسود في رسم إطارات الأشكال التي تظهر في تأليف الموضوع الممثل ، ثم جعلت المساحيق البيضاء والبنفسجية والخضراء وخاصة البرتقالية ضمن هذه الإطارات بعد أن أدخلت في تراكيبها مادة صمغية . ويلاحظ أن المساحيق المذكورة زالت من بعض أطراف الصحن . وإذا أمعنا النظر في الأشكال الظاهرة خلال الصحن وجدنا طاووساً يرى من وجهه الجانبي وهو يتجه من اليمين إلى اليسار ، حاملاً بمنقاره إكليلاً من العشب ، وفوق الطائر اكليل آخر ، وحوله نحو عشرة أوان . ولا يخفى أن للطاووس في الفن معنى رمزياً ، إذ أنه كان إشارة للانبعاث والخلود ، وكذلك

كان للاكليل نفس المعنى . وقد وجد ما يشبه شكله المائل في الصحن في مدفن اكتشف منذ مدة طويلة بالقرب من مصياف . وأكبر الظن أنه أحد من الأواني التي ترى موزعة حول الطاووس ، الإشارة إلى أنها كؤوس ، وهي عناصر رمزية أيضاً .

الصحن الثاني :

ويشبه الصحن الأول ، وقطره (١١ سم) ، وقد زين بنفس الأسلوب ، وثلم من أعلاه ، ويمثل أيضاً طاووساً مـن وجهه الجانبي ، يتجه مـن اليسار إلى اليمين ، ويحمل بمنقاره اكليلاً . وقد زالت الألوان من قسم كبير من الصحن .

الصحن الثالث :

وهو صغير ، ولا يتجاوز قطره (٧ سم) وقد انفصل جزء من أسفله ، وزين بالطريقة الفنية ذاتها . ويظهر فيه جني له جناح عصفور ، وشعر رأسه كثيف ، ويتجه من اليسار إلى اليمين ، مقدماً رجله اليسرى ، ومؤخراً رجله اليمنى . ويحمل بيده اليمنى كأساً ، وباليسرى عنقوداً من العنب . واللون المستخدم لتبيان جسم الجني أبيض وتحيط به خطوط سوداء . أما جناحه فقد لون باللونين البنفسجي والأخضر ، وجعل العنقود أبيض أيضاً . وأساس الصحن برتقالياً ، ويلاحظ أن أجزاء من هذه الألوان زالت ، وبقيت أمكنتها شاغرة .

وتذكرنا صورة الجني هذه بصورة ملونة مثبتة عـلى كأس يعرف باسم (كأس ديش) تظهر فيها ثلاثة من الجن . كما تذكرنا بالمفهوم القديم الذي كان يعتبر الروح لمـا تفارق الجسد كطائر له جناح عصفور ، كما تعيد على أذهاننا حديث أفلاطون عنها في أن الحماس يحملها بجناحيه خلال طيران سامٍ نحو الجمال الخالد . لذلك فإنه ترى غالباً على المدافن في سورية وفينيقيه أطفال بأجنحة ، وهم يقطفون الأعناب ، ويعصرونها ، ويهيئون الخمور كأشربة للخلود .

وقد تكرر تمثيل موضوع العناقيد مع بعض التفاصيل الأخرى في ألواح منحوتة وجدت في حوران وجبل الدروز وخاصة في ألواح جنازية كثيرة عثر عليها في المدافـن التدمرية .

الصحن الرابع :

وقطره (٦ سم) وقد تشوه المشهد المصور على وجهه ، تشوهاً يمنع من رؤية ما أراد

المصور تمثيله . وكل ما يمكن مشاهدته أربع قوائم لحيوان مفترس يظن أنه فهد على شاكلة الفهود الممثلة على صحون مماثلة وجدت في الدانيمرك وألمانيا وايقوسيا .

والخلاصة إن الصحون المصورة التي اكتشفت في موقع أم حوران تشبه بالألوان التي طليت بها المشاهد الممثلة فيها ، وعناصر هذه المشاهد ومواضيعها الأواني الزجاجية الملونة التي عثر عليها في بغرام من أفغانستان وفي أمكنة أخرى ، وأن الأفكار والمعتقدات الرمزية التي اختص بها المحيط السوري في العصر الروماني تنعكس فيها . ولا ريب أن هذا الاكتشاف يعزز النظرية التي تقول بأن سورية كانت موطن صنع هذه الأواني التي تعد من أروع ما تنتجه صناعة الزجاج في العصور القديمة . خاصة وأنه ظهرت عشرات الألوف من الأواني الزجاجية الأخرى من منطقة حوران التي لا تبعد كثيراً عن صيدا وصور ، وهما من أكبر مراكز صناعة الزجاج السوري في العهود المذكورة .

الكسر الزجاجية ذات الأشكال الذهبية التي عثر عليها في تدمر :

وتعد أيضاً هذه الكسر التي اكتشفت في الحفائر التدمرية خلال الخريف الماضي من أهم مخلفات الصناعة الزجاجية السورية الملونة التي ازدهرت خلال العصور القديمة .

وعدد هذه الكسر ثلاثة ، ويظن أنها كانت أجزاء من كأسين متشابهين . وقد اكتشفها زميلنا السيد نسيب صليبي في المنطقة الجنوبية من معبد الإله (نبو) الذي يظن أنه شيد في القرن الأول وهدم لدى تهديم تدمر على يدي الامبراطور الروماني أورليان سنة ٢٧١ بعد الميلاد .

والكسرة الاولى من الزجاج الأخضر المزرق غير الشفاف ، وعليها صورة لونت أجزاؤها بورقة ذهبية بعد أن طبخت على النار . ويحد الصورة اطاران علوي وسفلي . ويرى فيها شاب قوي الجسم وعاريه ، ظاهر العضلات ، وعلى كتفه رداء قصير . وهو يندفع نحو الجهة اليمنى لكي يمسك قرني وعل يتحرك بعنف . ويظن أن الشاب الممثل هو البطل هيراكليس وأنه يراد من المشهد سرد تفاصيل اسطورة هذا البطل مع وعل سيرينيا ذي القرنين الذهبيين والقوائم النحاسية . ولا يخفى أن هذه الأسطورة كانت تعتبر كصورة للحاق القمر بالشمس ،

وأن ديانة هيراكليس — ميلقارت كانت منتشرة في تدمر وأن هيراكليس كان يعبد في هذه المدينة على شكل الاله الشرقي (نيرغال) . مما يجعلنا نظن أنه كانت توجد علاقة مابين ما كان مصوراً على الكـأس ، وبين طقوس العبادة التي كانت تجري في معبد (نبو) ، وأن بقية المشاهد التي كانت ممثلة على بقية أجزاء الكأس المفقودة ربما كانت تمثل الأعمال الأخرى التي كانت تنسب إلى هيراكليس .

أما الكسرة الزجاجية الثانية ، فإنها من نوع زجاج الكسرة الأولى ، وعليها صورة وعل آخر في حركة عنيفة ، ويظن أنها كانت جزءاً من الكأس الذي كانت الكسرة الاولى جزءاً منه .

وأخيراً فإن الكسرة الثالثة تخالف الكسرتين الاولى والثانية ، وهي من زجاج أقل سمكاً من زجاج هاتين الكسرتين . وترى فيها قدم رجل يلبس سروالاً عريضاً ، والمعتقد أنها كانت جزءاً من كأس ثان مزين أيضاً بصور ذهبية .

وخلاصة البحث أن الكسر الزجاجية الثلاثة التي اكتشفت مؤخراً في تدمر تذكرنا بكسرة زجاجية مذهبة تمثل رأس الربة (تيتيس) ، كانت قد اكتشفت قبل ثلاثين سنة أو أكثر في دورا - أوروبوس ، وهي كما لا يخفى موقع أثري مشهور . ولا بد من القول أن هذه الكسرة بعد أن درست رؤي أن تاريخ صنعها يعود الى الزمن الممتد بين آخر القرن الثاني وبداية القرن الثالث أي قبل سنة ٢٥٦ ميلادية التي هدمت مدينة دورا - أوروبوس خلالها على أيدي الفرس . ولا شك أن الكأسين التدمريين اللذين تحدثنا عنهما كانا من نفس العصر وانهما صنعا قبل سنة ٢٧١ التي هدمت تدمر خلالها .

وهكذا فإن الكسر الزجاجية التدمرية المصورة تقربنا من الاواني الزجاجية الملونة التي عثر عليها في بغرام ومن الكسرة الزجاجية التي وجدت في دورا أوروبوس . وكل هذه الآثار السورية تشبه الابريق الزجاجي الذي وجد في (كيرش) ومشاهد الفسيفساء الزجاجية التي وجدت في (شابور) جنوبي ايران . والمعتقد أن صناع الزجاج السوري كانوا يتجهون بأنفسهم أو بمنتجاتهم على طريق تجارة الحرير التي كانت تدمر مركزها الرئيسي في القرنين الثاني والثالث الميلادي .

ولا بد من التذكير أن هذه المدينة كانت تهيء القوافل التي تحمل منتجات الصين والهند وبلاد العرب السعيدة ، كالاقمشة الحريرية والأفاوية والأحجار الكريمة واللآلىء ، والتي تتجه الى شواطىء البحر المتوسط ، كما تنقل الى الخليج الفارسي ، الأواني الزجاجية والفضية والذهبية والتماثيل المختلفة والأدوات البرونزية التي كانت تصنع في البلاد السورية لا سيما في انطاكية وحمص وصور وصيدا ، وفي البلاد السورية الأخرى . ودليلنا على ذلك أن المقابر السورية التي يرقى عهدها الى العصر المذكور مملوءة بالأشياء المشار اليها .

سليم عبد الحق